في دوافع التاريخ

دأب المؤرخون والباحثون الغربيون على تفسير تاريخ مصر بعد العصر الفرعوني تفسيراً يقوم على فكرة ضخمة أساسها أن مصر ظلت خاضعة للسيطرة الأجنبية منذ انقضاء العصر الفرعوني حتى اليوم.

ويذهب السير ارثر كيث الى أن مصر بعد الفتح الآشوري عام ٦٦٥ ق. م أمست في عصرها الطويل الذي خضعت فيه للسيطرة الأجنبية، فقد تداولت الدول الأخرى: الفرس، فالاغريق، فالرومان، فالعرب، فالترك، وأخيراً بريطانيا. وفي هذه الحقبة الأخيرة (١٩٤٦) تجري المفاوضات في موضوع جلاء بقية الجنود البريطانية عن أرض مصر.

ويمضي السير كيث زاعماً أن مصر استعادت سيادتها بعد ٢٥ قرناً، وصارت أمة ذات سيادة على نمط العالم الحديث!

وليس هذا القول من هذا الباحث جديداً عن الباحثين الغربيين، خاصة الانجليز، الذين تولوا كتابة تاريخ مصر.

وواضح من آراء هؤلاء القوم أنهم يقصدون هدفاً معيناً هو اشعار المصريين بأنهم كانوا في هذه الحقبة الطويلة من الزمن التي تبلغ ٢٥ قرناً خاضعين لحكم أجنبي، وبذلك لا يكون خضوعهم للنفوذ البريطاني مما يثير في نفوسهم حمية تدفعهم الى السعي الى استقلال افتقدوه منذ خمسة وعشرين قرناً.

وقد كان أثر هذه الدعوة الفاتلة واضحاً في برامج تعليم التاريخ في مصر. وكان أصحاب النفوذ البريطاني يحتفظون لها الخطوط الرئيسية الواضحة في كتب التاريخ التي تعلم في المدارس المصرية، حتى يشب المصري المتعلم موقناً أن وطنه كان مستعمراً في معظم فترات تاريخه. وبذلك يصاب بيأس قاتل يجعله أداة طيعة في أيدي المستعمرين.

ولم تكن هذه الدعوة وحدها مما يبعث اليأس والاستسلام في نفس المصري المتعلم،

بل تبعتها دعوات أخرى كان أهمها تلك الخرافة الضخمة التي نشرها الانجليز في مصر، وزعموا في كل كتاب، وفي كل صحيفة، أن مصر بلد زراعي لا يصلح للصناعة.

ولست أبغي مناقشة هذه القضية التي أثبت الزمن — وهو كفيل بقتل هذه الخرافة — أنها كانت تخدم أغراض السياسة الاستعمارية البريطانية في مصر.

ويهمني في هذا المقال أن أتحدث عن تاريخ مصر التي لم تكن خاضعة طوال خمسة وعشرين قرناً لسيطرة أجنبية كما يزعم كيث وغيره من خلاة المستعمرين — [كيث لا يختلف عن المستعمرين ولا عن بريطانيا بل يتكلم الرجل كعالم انثربولوجي — المحرر].

وإنه ليؤسفني وأنا عملك بقلمي أن أقرر حقيقة مؤلمة، هي أن معظم تاريخ مصر لم يتولّ كتابته حتى الآن مصريون، كما لم يكتبه غربيون منصفون يقررون الواقع مجرداً عن الهوى.

فنحن نرى مثلاً أن السير كيث يقرر أن مصر حفظت شخصيتها في تاريخها الطويل، وأن السيطرة الأجنبية المزعومة لم تقتل في المصريين روح الاستقلال. ولكنه رغم ذلك يتناقض مع نفسه ويزعم أن مصر خضعت لسيطرة أجنبية طوال ٢٥ قرناً.

والشعب المحتفظ بشخصيته، المحافظ على روح استقلاله، لا يمكن أن يخضع لسيطرة أجنبية ٢٥ قرناً، ولا يجوز لباحث أن يصمه بهذه الوصمة في غير احتياط.

وشواهد فساد هذه المزاعم الاستعمارية كثيرة نجملها فيما يلي:

أولاً — أن قيام دولة البطالسة في مصر كان من مظاهر الاستقلال الكامل، إذ أن بطليموس بن لاجوس مؤسس هذه الدولة كان يونانياً حقاً. ولكنه كان يحكم بلداً له كل مظاهر الاستقلال. وليس قيام ملك أجنبي على عرش شعب مما يجعل هذا الشعب خاضعاً لشعب الملك. ويكفي أن نعلم أن ملوك انجلترة ليسوا من الانجليز.

ثانياً — ان مصر في عهد الدولة الطولونية والاخشيدية والفاطمية والأيوبية. وفي عهد المماليك، كانت دولة مستقلة وهو أمرٌ لا يمكن انكاره.

ثالثاً — ان مصر قاومت الحملة الفرنسية في مطلع هذا العصر الحديث، ثم قاومت الأتراك، وولت محمداً عليّاً عليها بإرادة شعبها. وظلت تنعم باستقلالها حتى نشبت في البلاد ليران الثورة العرابية وتبعها الاحتلال البريطاني.

وقد استغل الباحثون الغربيون قيام ملوك من دم غير مصري على عرش مصر استقلالاً سيئاً، فجعلوا مصر تابعة لأمم هؤلاء الملوك. والواقع أن الملوك في أكثر الأمم في مختلف

عصور التاريخ لم يكونوا من أهل تلك الأمم إذا أنت تقصيت مولدهم .

كما أن كبار القادة والحكام ليس من المحتم أن يكونوا من جنسية الشعب الذي يقودونه ويحكمونه ولقد كان نابليون بونابرت غير فرنسي . ولكنه رغم ذلك قاد فرنسا نحو المجد ونحو الهزيمة على السواء .

وكذلك المبادىء والآراء ، فان باحثاً بعينه قد لا تستقر آراؤه ومبادئه في وطنه ، ولكنها تستقر في وطن آخر . وليس أدل على ذلك من استقرار آراء كارل ماركس في روسيا ، وعدم استقرارها في وطنه المانيا .

ومقياس الاستقلال لا يخضع لشخص بعينه أو مذهب بعينه ، ولكنه يخضع للشعب نفسه .

ولا خلاف بين الباحثين على احتفاظ مصر بشخصية واضحة متميزة ، تهضم غيرها من شعوب ، ولا يبتلعها شعب آخر مهما أوتي من قوة وسيطرة .

ولا خلاف بينهم أيضاً على أن روح الاستقلال من سمات المصرية في أجلى صورها ومعانيها . فمصر لا ترضى وما رضيت قط بسيطرة أجنبية ، ولكنها تخضع فترة لتثور وتسترد حقها الطبيعي في الحياة الحرة المستقلة

وليس معنى احتلالها بقوات من جيوش فارسية أو افريقية أو رومانية أو عربية أو فرنسية أو انجليزية ، أنها خضعت واستسلمت ، ولكن معناه انها تسير في تيار الحياة العالمية كما تسير الشعوب جميعاً ، تكبو ثم تنهض .

وما من شعب عريق في حضارته لم يستهدف لما استهدفت له مصر من غزوات . وليس في هذا ما يقدح في شعب بعينه ويصمه بتلك الوصمة التي شاء الباحثون الغربيون أن يصموا بها شعب مصر .

وان مظاهر القوة الغالبة تنتقل من شعب الى شعب ، ومن شرق الى غرب ، وفقاً لتيارات عامة تسير الحياة البشرية بأسرها .

وقد عاشت مصر عمرها المديد في خضم هذه الحياة دون أن تزول شخصيتها أو يمحى استقلالها

ولكننا نعرف شعوباً كثيرة في العالم القديم ظهرت على مسرح التاريخ ، ثم أصبحت من الوجود

عبد المنعم شميس